بلاغة العطف بالواو في القرآن الكريم

* د. فضل الله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فمن المعلوم أن القرآن الكريم معجزة خالدة، وهذا كتاب جامع لفنون البلاغة حاوي أطراف البيان والفصاحة، محكم في نظم حتى أن القارئ يحسب الفاظه لجمالها وروعتها منقادة لمعانيه، فإذا ما تغلغل فيه يجد معانيه منقادة لألفاظه ، حتى يؤمن المتأمل خيرآبأنه يقرأ كلاماً ما ليس من كلام البشر.

ولا يخفى على المتأمل في تاريخ البلاغة العربية أنهانشأت وترعرعت لخدمة القرآن الكريم والرغبة القوية في معرفة أسرار التراكيب القرآنية. وقد بذلت جهودا مفضينة لا نظير لها في تاريخ البشر في سبيل استكشاف الأسرار القرآنية ، وتأملوا آية آية ،سورة سورة، عشرا عشرا، فلم يجدوا في الجميع ، قلّ أو كثر كلمة تنبو مكانها أو لفظة تنكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح منها أو أشبه أو أحرى أو أخلق ، بل وجدا اتساقاً بهر العقول و أعجز الخمول؛ لأن أسرار القرآن كأسرار الطبيعة وكأسرار الكون، وكأسرار النفس، كلها آيات الله وكلها معجز، وأسرار الإيجاز لا تتناهى وأسرار الطبعة والكون والنفس لا تزال مبهمة في كهوف الغيب ، وإن صفحته الأولى ، فإنه يقال هذا في آيات القرآن (1).

---

* الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية والحضارة الإسلامية ، الجامعة الإسلامية العالمية ، إسلام أباد. باكستان

الواو بين الجمع المطلق ومطلق الجمع والترتيب:

وقد ذهب جمهور النحويين والبلاغيين أن الواو للجمع المطلق، وقال بعض العلماء: الصواب أن يقال: الواو لمطلق الجمع، لا للجمع المطلق؛ لأن الجمع المطلق هو الجمع الموصوف بالإطلاق، لأننا نفرق بالضرورة بين الماهية بلا قيد والماهية المقيدة ولو بقيد (لا) والجمع الموصوف بالإطلاق ليس له معنى هنا، بل المطلوب هو مطلق الجمع بمعنى أي جمع كان، سواء كان مرتبا أو غير مرتب، ونظير ذلك: مطلق الماء، والماء المطلق (2) فالأول لأي ماء كان، يشمل الجاري والمحبوس والعذب والملح، والثاني للتقييد بكونه مطلقاً لا محبوسا(3) فإذا قلت قام زيد وعمروٌ احتمل ثلاثة أوجه: الأول ـ أن يكونا قاما معاً في وقت واحد. والثاني: أن يكون المتقدم قام أولا والثالث. أن يكون المتأخر قام أولاً، قال سيبويه: "ليس في هذا دليل على أنه بدأ بشيء قبل شيء(4) أى أن الواو تتجرد للاشتراك المطلق حيث لا توجد قرينة تدل على غيره، فإن وجدت قرينة وجب الأخذ بما تقتضيه(5).

الخلاصة أن الواو تدل على مطلق الجمع المطلق بين المعطوف عليه في الحكم دون قصد الترتيب.

① فقد يعطف بها مقصودا بها الترتيب الحقيقي(كالفاء وثم) كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا نُوْحًا وَّاِبْرٰهِيْمَ﴾ (6)

② وقد يعطف بها المتصاحبان كقوله تعالى:﴿ فَاَنْجَيْنَاهُ وَاَصْحٰبَ السَّفِيْنَةِ﴾(7) لأن نجاتهم جميعاً تمت في وقت واحد.

③ وقد يعطف بها السابق (المتقدم) على اللاحق كقوله تعالى:﴿كَذٰلِكَ يُوْحِيْ اِلَيْكَ وَاِلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكَ اللّٰهُ﴾ (8) فعطف السابق (الذين من قبلهم) على المتأخر الضمير المجرور (إليك)، ولا يفيد هذه المعاني غيرها من حروف العطف.

وقد ذهب بعض النحاة والعلماء إلى أن الواو تفيد الترتيب: منهم الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، (9) وقطرب محمد بن المستنير(ت: ٢٠٦هـ) (10)، ويحيى بن زياد الديلمي المشهور بالفراء (ت:٢٠٧هـ) وهشام بن معاوية (ت: ٢٠٩)(11)،وثعلب (ت: ٢٩١هـ) (12)، ومحمد بن عبد الواحد أبي هاشم البغدادي المشهور أبي عمرو الزاهد (13) (ت:٣٤٥هـ)، وعلي بن عيسى الربعي(14) (ت: ٤٢٠هـ). وزاد بدر الدين الحسن بن قاسم المرادي (ت: ٧٤٩هـ) (15) من القائلين بذلك: أبا جعفر الدينوري (16) وبعض الأحناف وعن الفرّاء أنها للترتيب حيث يستحيل الجمع (17) وقال ابن خباز(18). وقال ابن مالك في التسهيل: (تنفرد الواو بكون متبعها في الحكم محتملاً للمعية برجحان ولتأخر بكثرة واللتقدم بقلة) (19)

وإذا تأملنا في آراء العلماء ، فنجد أنهم منقسمون: فمنهم من يقول بذلك على إطلاقه ومنهم من يرى أنها قد تفيد مطلق الجمع، وأما النصوص التي ترى فيها الترتيب فهي لقرينة خارجية سواء كانت حضورية أو ذهنية ـ والله أعلم ـ

وفيما يلي نورد أدلة الجمهور بشيءٍ من التفصيل لتتضح الحقيقة ؛ لأن هناك عللٌ راجحة تؤيد على أن الواؤ تأتي لمطلق الجمع منها:

① قد استدل الجمهور على أن الواو تأتي للجمع فقط: لأن هناك نصوص تشتمل فيه الترتيب نحو: قوله تعالى:﴿ يَمَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ (20) وقوله: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ (21)؛ لأن الثاني فيهما قبل الأول؛ لأن المعروف شرعاً أن الركوع قبل السجود، فالواو إذن لا تفيد سوى الجمع بين هذه الثلاثة المأمور بها ولو كانت للترتيب لتناقض قوله تعالى:﴿وَّادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ (22) إذ القصة واحدة؛ فيكون الدخول متقدماً على متاخراً عنه في حالة واحدة(23) وقوله في موضع آخر﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَّادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ (24)

② استعمالها فيما لا يسوغ فيه الترتيب إذ لا يعقل وقوع الفعل إلا من اثنين معاً ، كالافتعال

والتفاعل في قولك: اختصم زيد وعمروٌ، وتخاصم زيدٌ وعمرو، وهذا من أقوى الأدلة على عدم إفادتها الترتيب، ومن ذلك: جلست بين زيد وعمرو(25) والبينية لا تحتمل إلا العطف بالواو، لدلالتها على ما يلائم معنى الواو من كونها لمطلق الجمع.

③ إن قصد الترتيب مع استعمال الواو فلا بد من تقييد الواقع بعدها بما يفيد هذا الترتيب نحو أن تقول جاء ني زيد و عمر بعده، فلو كانت الواو تفيد الترتيب وحدها من احتيج إلى كلمة بعده، ولكان ذلك تكريرا، فالترتيب مستفاد من التقييد بالبعدية ، لا من الواو بدليل أنه يقال أيضاً: جاء ني زيد و عمرو قبله، ويكون الكلام صحيحا، فلو كانت مفيدة الترتيب لكان الكلام متناقضاً، وهو ما لم يقل به أحد.

④ لو كانت الواو مفيدة للترتيب لحمل تناقض أيضاً في نحو قولنا: جاء ني زيد اليوم وعمرو أمس؛ لأنها تدل عندئذ على خلاف ما تدل عليه كلمة "أمس"، ولما لم يقل أحد بحدوث تناقض في مثل هذه الجملة دل ذلك على أنها لا تفيد ترتيبا.

⑤ عدم وقوعها في مواضع يجب فيها الترتيب، كما في أسلوب الشرط، فأنت تقول: إن تحسن إليّ فالله يجازيك، ولا يصح عربية أن تقول: إن تحسن إليّ والله يجازيك، على أن يكون: والله يجازيك جواباً للشرط؛ لأن الجواب مرتب على الشرط ترتب المسبب على السبب فلا بد من حرف مفيد للترتيب وهو الفاء (26).

⑥ عطف الصفات المتفرقة بها مع اجتماع منعوتها كما في قول الشاعر:

بكيت و ما بكا رجل حزين على ربعين: مسلوب و بالى (27)

فمن الواضح أن التثنية في هذا البيت تفيد الاجتماع في أمر البكاء عليهما، وهو ما يفيد أن الواو بين الصفتين المختلفتين لمطلق الجمع دون قصد لأي ترتيب.

⑦ ومما يدل على أن الواو لا تفيد ترتيباً ما وقع في القرآن الكريم ــ وأساليبه أعلى أساليب العربية فصاحة وبلاغة ــ من تقديم المعطوف بالواو مرة ، وتأخيره مرة أخرى في

موضعين مختلفين من الكتاب المبين، مع أن القصة فيها واحدة وذلك كما رأينا في الآيات المذكورة.

الخلاصة إن الواو لمطلق الجمع أو الجمع المطلق إذا كانت خالية من القرائن اللفظية أو المعنوية، وأما إذا كانت مصاحبة بالقرينة فتدل حسب القرينة تتميز الواو بأحكام خاصة بين حروف العطف ، ونحن نتركها لخروجها عن صلب الموضوع. ومن أراد التفصيل فليراجع كتب النحو (28).

أنواع الواو:

وقد قسّم علماء اللغة الواو باعتبار وظيفتها إلى أقسام متعددة: منها الواو الاستئنافية، والواو الحال، والواو بمعنى رب، والواو الثمانية وغيرها(29) ، ولكن عند التأمل التعمق تتضح الحقيقة أن الواؤ تاتي لتربط ما بعدها بما قبلها، سواء جرى على حكمه الإعرابى أم لم يجر، إن كان الربط أثرا وضعياً لوجود الواو بينهما ، وهى تستشعر في أغلب أحوالها معناها الأصلي وتلتفت إليه، ولا يُغنى عن ذلك شيئا تسميتهم الواو يأخذ ما بعدها حكماً مغايراً ما قبلها بواو الاستئناف أو القطع ماداموا يعنون بذلك المعاني الأولية ومستوى الصحة في الكلام؛ لأنهم يتجاوزون ذلك المستوى الأولى إلى استشراف دواعي الاستئناف وملاحظة جهات الربط بين ما بعده وما قبله؛ ومن ثَمّ فإن الاستئناف النحوى بالواو إن كان يدل على ابتداء معنى جديد في الظاهر ، لا يخلو من جهة ارتباط بين مضمون ما قبله وما بعده، أو بين دلالة الاستئناف والأغراض والمعاني الثانوية الكلام قبله(30). أي أن هناك علاقة وثيقة بين ما قبل الواؤ وما بعدها وإن كانت ترى مفككة ومنفصلة بينها إلى أن التسلسل المعنوى والحبك الكامن ماوراء السطور تربط بينها بنسج خفي ولطيف. وإدراك هذا التسلسل يحتاج إلى التدبر والتمعن في العلاقة بين الجمل. ودراسة هذه العلاقة قد عُنيت بالبسط في البلاغة العربية تحت مبحث الفصل و الوصل.

مزايا الواو

من المعلوم أن الواو تأتي لتشريك المعطوف بالمعطوف عليه في الإعراب والحكم ، وأنها لا تفيد الترتيب، وهي تنفرد بأمور بين حروف العطف مثل عطف الخاص على العام وعكسه(31) وبعطف المرادف (32) وبعطف ما حقه التثنية(33) وبعطف العقد على النيف وباقترانها بإما ولكن (34) وغيرها من الأمور (35).

من المعلوم أن الشيء لا يعطف على نفسه؛ لأن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل كما مر سابقاً وقد يعطف الشيء على نفسه لاعتبار لطيف فمثلا قولنا جاء ني عمرو أبو حفص، وهو أن الاسم الثاني يفيد فائدة زائدة على معنى الاسم الأول ، ففي مثل هذا المقام يجوز العطف وتركه ، فالعطف لقصد تعدد الصفات وتغايرها فيما بينها وتركه العطف لكون المرجع واحداً. هو الذات .

وأما في أسماء الرب تبارك وتعالى فأكثر ما يجيء في القرآن بغير عطف نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ اللّٰهُ الَّذِیْ لَآ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ. عٰلِمُ الْغَیْبِ وَالشَّهَادَةِ. هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِیْمُ ○ هُوَ اللّٰهُ الَّذِیْ لَآ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ. اَلْمَلِکُ الْقُدُّوْسُ السَّلٰمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَیْمِنُ الْعَزِیْزُ الْجَبَّارُ الْمُتَکَبِّرُ. سُبْحٰنَ اللّٰهِ عَمَّا یُشْرِکُوْنَ ○ هُوَ اللّٰهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْاَسْمَآءُ الْحُسْنٰی. ﴾ (36).

فجاء بها على جهة التعديد من دون الواو (37) وجاءت معطوفة في موضعين: أحدهما في أربعة أسماء وهي ﴿هُوَ الْاَوَّلُ وَالْاٰخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (38) والثاني في بعض الصفات بالاسم الموصول مثل قوله:﴿الَّذِیْ خَلَقَ فَسَوّٰی وَالَّذِیْ قَدَّرَ فَهَدٰی وَالَّذِیْٓ اَخْرَجَ الْمَرْعٰی﴾ (39) ونظيره﴿الَّذِیْ جَعَلَ لَکُمُ الْاَرْضَ مَهْدًا وَّجَعَلَ لَکُمْ فِیْهَا سُبُلًا لَّعَلَّکُمْ تَهْتَدُوْنَ ○ وَالَّذِیْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَاَنْشَرْنَا بِهٖ بَلْدَةً مَّیْتًا کَذٰلِکَ تُخْرَجُوْنَ ○ وَالَّذِیْ خَلَقَ الْاَزْوَاجَ کُلَّهَا﴾ (40).

ويترك العطف في الأسماء الإلهية لتناسب معاني تلك الأسماء وقرب بعضها من بعض وشعور الذهن بالثاني منها شعوره بالأول، فمثلاً بمجرد ذكر المغفرة ينتقل الذهن منها إلى الرحمة وبذكر صفة السمع ينتقل الذهن إلى البصر وكذلك ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ (41).

وأما تلك الأسماء الأربعة:

① فهي ألفاظ متباينة المعاني متضادة الحقائق في أصل موضوعها وهي متفقة المعاني متطابقة في حق الرب تعالى لا يبقى منها معنى بغيره بل هو أول كما أنه آخر وظاهر كما أنه باطن. ولا يناقض بعضها بعض في حقه فكان دخول الواؤ صرفا لوهم المخاطب قبل التفكر والنظر عن توهم المحال واحتمال الأضداد؛ لأن الشيء لا يكون ظاهراً باطنا من وجه واحد وإنما يكون ذلك باعتبارين فكان العطف ههنا أحسن من تركه.

② أو أنه لما كانت هذه الألفاظ دالة على معاني متباينة وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها أتي بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات إيذانا بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها.

③ أو أن الواؤ تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره يكون في الكلام متضمنا لنوع من التأكيد من مزيد التقرير، فمثلاً إذا كان لرجل أربع صفات هو عالم وجواد وشجاع وغني، وكان المخاطب لا يعلم ذلك ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل، فإذا قيل له زيد عالم وكان ذهنه استبعد ذلك فتقول: وجواد أي وهو مع ذلك جواد فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت وشجاع أي وهو مع ذلك شجاع و غني فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه فعلى سبيل المثل قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُوْلُ الْمُنٰفِقُوْنَ وَالَّذِيْنَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ .....﴾ (42) عطف الذين في قلوبهم مرض على المنافقين وهم هم ليفيد هذا العطف أنهم جمعوا بين النفاق الذي هو إظهار الإيمان و

إبطان الكفر وبين مرض القلوب الذي هو غل وحقد وجبن ودغل؛ فكل ما هو من هذا الباب ، ولو حذفت الواو لكان الذين في قلوبهم مرض وصفاً لمنافقين ، ولذهب معنى الجمع بين الصفتين الذي أفادته الواو ، ومثل هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَبَ وَالْفُرْقَانَ﴾(43) فالفرقان هو الكتاب ، ولكن العطف أفاد أنه يجمع بين كونه كتاباً منزلا وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل ومن كلامهم رأيت الغيث والليث أي الرجل الذي يجمع بين الجود والشجاعة (44).

كذلك في الآية الكريمة فالوهم قد يعتريه إنكار لا جتماع هذه المقابلات في موصوف واحد فإذا قيل هو الأول ربما سرى الوهم إلى أن كونه أولاً يقتضي أن يكون الآخر غيره؛ لأن الأولية والآخرية من المتضايفات . وكذلك الظاهر والباطن فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية فكانه هو الأول وهو الآخر ..... لا سواه (45).

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.....﴾ (46) ولأن هذه الجملة تتضمن نوعين من العطف ، ففيها عطف المسلمات على المسلمين؛ أي عطف الإناث على الذكور،وهذا العطف عطف لازم لأن الواؤ توسطت بين جنسين متقابلين، أعني الإناث والذكور،وحين تتقابل الصفات يجب العطف (47) وكذا قوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَتٍ مُّؤْمِنَتٍ قَنِتَتٍ تَئِبَتٍ عَبِدَتٍ سَئِحَتٍ ثَيِّبَتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (48)

فقد عدد الصفات من غير عاطف فلما تقابلت الثيوبة والبكارة قال (ثيبت وأبكار) وجاء بالواو، ومنه قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِدُونَ الْحَمِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّكِعُونَ السَّجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (49) فذكر الصفات على سبيل التعديد الخالي من العطف فلما جاءت الصفات المتقابلة فصلها بالواو فقال: ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (50).

وإذا لم تتقابل الصفات فإنها تجيء تارة بالواو وتارة من غير واو، فإذا جاء ت بالواؤ فقد تفيد معنى المذكور جامع لهذه الصفات كقوله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَآ اِنَّنَآ اٰمَنَّا فَاغْفِرْلَنَا ذُنُوْبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ اَلصّٰبِرِيْنَ وَالصّٰدِقِيْنَ وَالْقٰنِتِيْنَ وَ الْمُنْفِقِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ بِالْاَسْحَارِ﴾ (51) فقد جاء ت الواو بين هذه الصفات لتفيد أن هؤلاء المذكورين قد جمعوا بين هذه الصفات، وهذا يفيد أنهم بلغوا الغاية في كل صفة من هذه الصفات وواضح أنه ليس بينها تقابل صرح به العلوي (52)

وأما قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ .....﴾ (53) إذا تأملنا في الآية الكريمة فنجد أنها تشتمل على ستة أسماء كل اثنين منها قسم فابتدأ ها بالعزيز العليم وهما اسمان مطلقان وصفتان من صفات ذاته وهما مجردان عن العطف ، ثم بعدهما اسمين من صفات أفعاله فأدخل بينهما العاطف لكونهما مفردين صفتين جارتين على اسم الله وهما متلازمان فتجريد هما عن العطف هو الأصل وأما (غافر الذنب وقابل التوب) فدخل العاطف بينهما؛ لأنهما في معنى الجملتين وإن كانا مفردين لفظا فهما يعطيان معنى يغفر الذنب ويقبل التوب، أي هذا شأنه ووصفه في كل وقت، فأتي بالاسم الدال على أنه هذا وصفه ونعته المتضمن لمعنى الفعل الدال على أنه لا يزال يفعل ذلك فعطف أحدهما على الآخر على نحو عطف الجمل بعضها على بعض (54).

الخلاصة أن إتيان الواو وحذفها يتعلق بقصد المتكلم ومرداه من قوله ، فمثلاً أن امرؤالقيس لما أراد أن يصف فرسه بالسرعة وقوة الجري والاندفاع قال:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً كَجُلْمود صَخْرٍ حَطَّه السيلُ مِنْ عَلِ (55)

فأسقط الواؤ ليوهم أنه يقبل في حال الإدبار ويكر في حال الفرار ولو قال مكر ومفر مقبل لأفاد غير هذا المعنى الذي أفاده بإسقاط الواو.

ومن هنا اتضح أن للواو سياقات، وكل سياق له دلالة وحذفها له مع كل جملة مغزى،

ويخطئ من يضع لها القاعدة فمثلاً وقعت الصفات بين غير المتقابلة في قوله تعالى: ﴿الصَّٰبِرِينَ وَالصَّٰدِقِينَ وَالْقَٰنِتِينَ﴾ (56) وسقط في قوله تعالى ﴿التَّٰٓئِبُونَ الْعَٰبِدُونَ.....﴾ (57)

بعد هذه الملاحظات الهامة نوّد أن نسلّط الأضواء على الأسرار البلاغية للواو العاطفة. من المعلوم أن البلاغيين جعلوا باب الفصل والوصل مقصوراً على الوصل بالواو دون غيرها من حروف العطف، وعلى ترك هذا الأصل بها، وجعلوه خاصاً بالجمل التي لا محل لها من الإعراب، فما كان هذا منهم إلا لأن عطف المفرد على المفرد بالواو يكون للإشراك في الإعراب والحكم المترتب عليه، ولذا كان أمرا سهلابينا، وكذلك الجمل التي لها محل من الإعراب لوقوعها موقع المفرد (58).

ولكن كلامهم هذا ليس مسلماً به على عمومه؛ لأن العطف بين المفردات والجمل التي لها محل من الإعراب لا يخلو من غموض وإشكال في معرفة العطف في موضع وتركه في موضع آخر، وكما ينبغي أن نعرف سرّ الفصل والوصل بين الجمل التي لا محل لها من الإعراب، كذلك ينبغي أن نعرف سر تقديم أحد المتعاطفين بالواو من المفردات والجمل التي لها محل من الإعراب.

وقد أشار سيبويه أن العرب يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم لشأنه أعنى، وإن كان جميعا يهمانهم ويعنيانهم (59) ولكن الاهتمام والعناية غرض عام لا يكفي عن بيان سر العناية والاهتمام في كل موضع.

أسرار تقديم أحد المتعاطفين:

فإذا كانت الواو لمطلق الجمع، فما الذي يدعو إلى جعل أحد المتعاطفين بها معطوفاً مقدماً والآخر معطوفا مؤخرا؟ فلا بد من أسرار بلاغية كامنة وراء ذلك.

تأتي الواو العاطفة لأغراض شَتّى ومعان مختلفة غير مطلق الجمع كما درج عليه النحاة

في دراسة النحو، فإن علماء البلاغة لم يفتهم التأمل والتدبر في الأغراض والمعاني التي من السياق الذي ترد فيه الواو العاطفة وفيما يلي أحاول الوقوف على بعض تلك الأسرار والمعاني حسب الطاقة والجهد.

① التقديم لمراعاة السبق: من أسرار تقديم أحد المتعاطفين بالواو العاطفة على صاحبه السبق، وللسبق أنواع منها ما يلي:

(أ) السبق في الزمان باعتبار الإيجاد: ومن السبق في الزمان باعتبار الوجود، سبق السِّنة على النوم في قوله تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَّ لانَوْم﴾ (60)؛ لأن المعتاد عند البشر أن تأخذ الإنسان السِّنة قبل النوم ، فجاء ت العبارة الكريمة مرتبة على حسب تلك العادة، وقد زاد السهيلي وجهاً آخر على السابق؛ وهو: أن الآية في معرض التمدح والثناء،وافتقاد السنة أبلغ في التنزيه، فبدئ بالأفضل؛ لأنه إذا استحالت عليه السنة فأحرى أن يستحيل عليه النوم(61).

وكذا قوله تعالى: ﴿ اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّوْرِ﴾ (62) وكذا قوله تعالى: ﴿ وَعَهِدْنَآ اِلٰٓى اِبْرٰهٖمَ وَ اِسْمٰعِيْلَ.....﴾ (63) قدم سيدنا إبرهيم ـ عليه السلام ـ لأنه كان قبل اسماعيل. وقد ينضم إليه وجوهاً أخرى للتقديم ، فالنكات البلاغية لا تتزاحم .

وأما قوله تعالى: ﴿ اَمْ لَمْ يُنَبَّاْ بِمَا فِيْ صُحُفِ مُوْسٰى وَاِبْرٰهِيْمَ الَّذِيْ وَفّٰى﴾ (64) قدم بما صحف موسى ـ عليه السلام ـ رغم تأخره حسب التاريخ لأن صحفه ـ وهي التوراة ـ كانت أشهر وأكبر وأكثر انتشارا عند مَنْ احتج عليهم القرآن الكريم بالتولي والترك في الآيات السابقة (65) ومنه تقديم الليل على النهار كقوله تعالى: ﴿اِنَّ فِيْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَار.....﴾ (66) ولذلك اختارت العرب التأريخ بالليالي دون الأيام، وإن كانت مؤنثة والأيام مذكرة، وقاعدتهم تغليب المذكر على المؤنث إلا في التاريخ (67) وقد يخالف لهذه القاعدة لغرض وحكمة تتعلق بالسياق (68).

(ب) وقد يكون السبق الزماني باعتبار الوجوب والتكليف الشرعي

كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (69)

قال الإمام البيضاوي " وعطف العمل على الإيمان مرتبا للحكم عليهما إشعارا بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين والجمع بين الوصفين؛ فإن الإيمان الذي هو عبارة عن التحقيق التصديق أسّ والعمل الصالح كالبناء عليه ولا غناء بأسّ لا بناء عليه ، ولذلك قلما ذكر مفردين(70) ومن الواضح أن الإيمان مقدم من الأعمال الصحالة ولا تقبل الأعمال الصحالة إلا بالإيمان كما في قوله تعالى: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾(71) وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَآئِرِ اللَّهِ﴾ (72) وقد تقدم السجود عن الركوع لسر بلاغي ولمغري معنوي (73)

(جـ) وقد يكون السبق باعتبار ترتيب الوقائع:

كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (74)، ذلك أن النور والكمال والرحمة والخير كله مضاف إلي الله سبحانه وتعالى، والملائكة وسائط في ذلك، والمستقبل لتلك الرحمة هم الرسل والأنبياء، فلا بد أولاً من أصل، وثانيا من وسائط وثالثا من حصول تلك الرحمة ورابعاً من وصولها إلى من يستقبلها ، فجاء الترتيب على ذلك الوقائع (75).

● التقديم لمراعاة الشريف: وهو متنوع إلى عدة اعتبارات:

(أ) منها شرف الحرية كقوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ (76).

(ب) ومنها شرف الإيمان والإسلام كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِيَ أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ (77) وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ (78).

(جـ) ومنها شرف وسيلة الإدراك: كتقديم السمع على البصر في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَّمْلِكُ السَّمْعَ وَالْاَبْصَارَ﴾ (79) فالسمع أشرف من البصر عند جمهور العلماء ؛ لأن السمع آلة ليتلقى المعارف التي بها كمال العقل ، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر (80) ولذا ربط سبحانه بينه وبين العقل في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَّسْتَمِعُوْنَ اِلَيْكَ. اَفَاَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوْا لَا يَعْقِلُوْنَ﴾ (81) وكذلك وقع في صفاته تعالى: سميع بصير، بتقديم السمع.

وحين يقدم القرآن الكريم القلب على السمع والبصر كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللّٰهُ عَلٰى قُلُوْبِهِمْ وَعَلٰى سَمْعِهِمْ وَعَلٰى اَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (82)؛ فلأن الحواس في خدمة القلب وموصلة إليه فهو الأهم في هذا السياق (83) وحين يؤخر القلب على السمع قوله تعالى: ﴿وَّ خَتَمَ عَلٰى سَمْعِهٖ وَقَلْبِهٖ﴾ (84) فلأن السياق في ذم المتصامين على اسماع. وحين يتقدم السمع والبصر على الفؤاد أو القلب في مواضع كثيرة من القرآن الكريم فإما أن يكون لمراعاة أنها وسائل موصلة إليها، وإما أن يكون لمراعاة ما مرتبطة بالسياق (85).

(د) ومنها شرف الخِلقة كتقديم السماوات على الأرض في قوله تعالى: ﴿اَلَمْ تَعْلَمْ اَنَّ اللّٰهَ لَهٗ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ.....﴾(86) وأما تأخير السماء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَّبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْاَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ﴾ (87)؛ فلأن الخطاب في أول الآية لأهل الأرض في قوله: ﴿ولا يعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذتفيضون فيْهِ﴾ وعملهم الذي لا يغيب عن علم اللّٰه ـ مهما كان ضيئلا ـ واقع فيها، ولذا يقول الزمخشري في سر تقديم الأرض على السماء هنا بخلاف قوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوٰتِ وَلَا فِى الْاَرْضِ﴾ (88)"حق السماء أن تقدم على الأرض ولكنه لما ذكر شهادته على

شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ، ووصل بذلك قبله (وما يعزب عن ربك) لاء م ذلك أن قدم الأرض على السماء" (89) ويمكن أن يكون منه تقديم المشرق على المغرب (90) لأن المشرق علامة الضوء والرحمة والبهجة وأما المغرب فهو علامة الظلام، والعذاب والكدورة. والله اعلم.

(و) ومنها التقديم لشرف الفضيلة كقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ (91)، وقد يؤخر الأشرف والأفضل لعلة أو علل عديدة ، وهكذا لا تنحصر الشرف فيما سلف، ولكنها أنواع كثيرة اكتفينا ببعضها لتكون دليلا إلى غيرها.

❸ التقديم لمناسبة السياق:

نتأمل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (92)، وهذا عطف على (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ.....) لأن المعطوف بيّن فريقاً آخر من المتقين وهم الذين آمنوا بما أنزل من الكتب الإلهية قبل بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم آمنوا بمحمد ، وهم إن شاركوا مسلمي العرب في الاهتداء بالقرآن والإيمان بالغيب وإقامة الصلاة فإن ذلك كان من صفاتهم قبل مجيء الإسلام فذكرت لهم خصلة أخرى زائدة على ما وصف به المسلمون الأولون، فالمغايرة بين الفريقين هنا بالعموم والخصوص، ولما كان قصد تخصيصهم بالذكر يستلزم عطفهم وكان العطف بدون تنبيه على أنهم فريق آخر يوهم أن القرآن لا يهدي الا الذين آمنوا بما أنزل من قبل؛لأن هذه خاتمة الصفات فهي مرادة فيظن أن الذين آمنوا عن ترك لا حَظَّ لهم من هذا الثناء ..... دفع هذا الإيهام بإعادة الموصول ليؤذن بأن هؤلاء فريق آخر غير الفريق الذي أُجريت عليهم الصفات الثلاث الأول (93) والسياق هنا يقتضي أن تقدم الذين آمنوا عن شرك. وهذا إذا كان المراد من العطف المغايرة، وأما إذا كان كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجاً تحت المتقين

يكون توسيط العاطف لاختلاف الصفات كما في قول الشاعر (94).

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

فيكون العطف لإيذان بأن كل واحد من الإيمان بما أشير إليه من الأمور الغائبة، والإيمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله، له شأن خطير مستتبع لأحكام جمة، حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل، ولا يجعل أحدهما تتمه للآخر (95) وقد يكون هناك أوجه أخرى غير ذلك الوجهين لأن عجائب القرآن لاتنتهى.

❹ التقديم لمراعاة الغلبة والكثرة:

كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَّشَآء .....﴾ (96) نجد أن المغفرة قدمت على العذاب وذلك للإيذان والإشارة إلى أن رحمته تعالى سبق غضبه ، وبأنها من مقتضيات الذات دونه ، فإنه من مقتضيات سيئات العصاة ،وهذا صريح في نفي وجوب التعذيب والتقبيد بالتوبة وعدمها كالمنافي له" (97). وهناك آيات كثيرة قدمت فيها المغفرة على الغذاب (98).

وأما تقدم العذاب على المغفرة في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَّشَآء وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ (99) فلأن سياق الكلام السابق في ذكر التوبة على الذنوب ، فقدم العذاب للاهتمام بما يجب من الحكم في التعذيب المصرين في العذاب أو أنه كما كان إيقاع النقمة أدل على القدرة وكان السياق لها لما تقدم من خيانة أهل الكتاب وكفرهم وقصة ابني آدم ـــ عليه السلام ـ والسرقة والمحاربة وغير ذلك، قدّم قوله معللاً لفعل ما يشاء بتمام الملك لا بغيره من رعاية المصالح أو غيرها (100).

❺ التقديم لمراعاة المناسبة: والمناسبة تنفرع إلى قسمين:

ا. مناسبة سياق الكلام: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيْهَا جَمَالٌ حِيْنَ تُرِيْحُوْنَ وَحِيْنَ

تَسْرَحُوْنَ﴾ (101) فالجمال وإن كان ثابتا لها في الحالين ، فإنه في حال الإراحة أظهر وأفخر؛ لأنها تقبل إلى حظائرها ملاىء البطون الضروع مرحة بمسّرة الشبع ومحبة الرجوع إلى منازلها من معاطن ومرابض. وأما في حالة إسراحا فإنها تكون خماصاً (102) ومنه تقديم الحكم على العلم كقوله تعالى:﴿فَفَهَّمْنٰهَا سُلَيْمٰنَ وَكُلًّا اٰتَيْنَا حُكْمًا وَّعِلْمًا﴾(103) فمن المعلوم أن العلم يجب أن يسبق الحكم ، ولكن لما كان السياق في الحكم قدمه.

ب. مناسبة اشتقاق اللفظ: كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ (104) وقد يقدم المؤخر (الآخر ومشتقاتها) لسّر بلاغي ونكته لطيفة (105).

❻ التقديم لكون الواو سببا وداعيا:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ التَّوَّابِيْنَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ﴾ (106) قدمت التوبة من التطهير؛ لأنها سبب الطهارة (107) ولا يمكن التطهر من النجاسات المعنوية إلى بالتوبة النصوع. وكذا قوله تعالى: ﴿أُولٰٓئِكَ عَلٰى هُدًى مِّنْ رَّبِّهِمْ وَأُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ﴾ (108) وعطف (أولئك) الثاني على الأولى؛ لأن الفلاح مسبب وكون الإنسان على الهداية سبب ، والسبب يكون قبل المسبب، وبهذا أشار الشيخ شهاب الدين صاحب حاشية الشهاب على البيضاوي قائلا "وقد تجعل أولئك الثانية إشارة إلى المتقين الموصوفين بكونهم على هدى من ربهم وبجعل الفلاح مترتباً على كونهم على تلك الهداية الواصلة إليهم من ربهم المرتبة على الأوصاف السابقة" (109) .

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ يَغُضُّوْا مِنْ اَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوْا فُرُوْجَهُمْ﴾ (110)؛ لأن البصر داعية إلى الفرج كما قال الرسول ﷺ ((العينان تزنيان، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)) (111) ولذا وضح الزمخشري سر تقديم البصر على الفرج قائلاً؛ لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفجور، والبلوى فيد أشد وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه " (112) وكذا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (113) وقد عطف (يشترون) على يكتمون؛ لأن الاشتراء سبب الكتمان؛ كأنه قيل أنهم يكتمون فنشأ منه السؤال لماذا؟ فأجيب لأنهم (يشترون) به . والله أعلم .

وكذا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (114) (ولا تطع الكافرين) عطف على (اتق الله) من قبيل عطف الخاص على العام؛ لأن الأمر بالتقوى متناول للنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، وهذا العطف يفيد الاهتمام بالنهي عن طاعتهم ويؤكدها، وكأنه قد نهى سبحانه عن طاعتهم مرتين: مرة عن العموم ومرة عن طريق التفصيل، وذلك لخطورة الإصغاء إليهم والتماس النصح أو المشورة منهم (115).

❼ التقديم لمراعاة الترقي: كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (116) .

إذا تأملنا في الآية الكريمة بتمعن فنجد أن الله تعالى قد بدأ أولاً بما يقتضي تقديمه وهو ذكر المقر، وهو الجنات، ثم انتقل من ذكرها إلى أنواع من الثمرات؛ لأن الإنسان مايكون أحوج إلى الطعام والثمرات ثم انتقل إلى أهم ذريعة للسكون والطمانينة وهي الأزواج المطهرة، ثم انتقل منها إلى شيء هام وهو خوف زوال النِعَم. أي أن في الآية مراعاة للترقي بحيث بدأ بالسكن ثم انتقل إلى الثمرات ثم إلى الأزواج وأخير إلى توضيح هام هو أن هذه النِعَم تكون أبدية وليس مثل نعم الدنيا الفانية.

وكذا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ. إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(117) وقد بدأ بالتلاوة لأن الوظيفة الأولى للرسول هي التلاوة ثم التعليم إذ أنه يأتي بعد التلاوة ثم تأتي التربية ، لأن مرحلة التربية تأتي بعد مرحلتي (التلاوة والتعليم)

● التقديم للتعظيم:

كقوله تعالى: ﴿.....حَتّٰى يَقُوْلَ الرَّسُوْلُ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مَعَهٗ مَتٰى نَصْرُاللّٰهِ﴾ (118) قدم (الرسول) من (الذين آمنوا) للتعظيم. وكذلك قوله تعالى:﴿وَالَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَآ اُنْزِلَ اِلَيْكَ وَمَآ اُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾(119) "قدم القرآن على (ما أنزل من قبلك) للتعظيم وبيان أفضليته (120) وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اَنْتُمْ هٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُوْنَ اَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُوْنَ فَرِيْقًا مِّنْكُمْ﴾ (121) وقوله : ﴿ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ كَانُوْا يَكْفُرُوْنَ بِاٰيٰتِ اللّٰهِ وَيَقْتُلُوْنَ النَّبِيّٖنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (122) وها تين الآيتين في ذم اليهود والنصاري وأنهم وصفو بسبب توليهم عن الإسلام وكفرهم بصفتين هما: كفرهم بآيات اللّٰه بدئ فيه بالأعظم فالأعظم وبما هو سبب للآخر ، فأولهما الكفر بايات اللّٰه وهو أقوى الأسباب في عدم كذلك بحيث قدم قتل النفس من الإخراج؛ لأن القتل اعظم إثما من الإخراج.

الخلاصة:

وبعد هذا العرض المجمل لبعض أسرار العطف بالواو في القرآن الكريم نستخلص ما يلي

أولاً: أن الواو العاطفة على أصح الآراء وأقواها لمطلق الجمع، وأن تقديم المعطوف عليه على المعطوف ـ في القرآن الكريم، وكذا في الكلام الفصيح العالي ـ إنما يكون لسر يقتضي تقديم أحدهما وتأخير الآخر . وهذا السر خارج عن دلالة الواو الموضوعة لمطلق لجمع. وقد قُدّمت أدلة مقنعة في هذا الصدد.

ثانياً: تنقسم الواو باعتبار وظيفتها إلى أقسام متعددة؛ منها الواو الاستئنافية والواؤ الحالية والواو بمعنى رُبّ والواو العاطفة والواو الثمانية ، ولكن المعنى الرئيسيي والدلالة الأصلية هي ربط ما قبل الواؤ بما بعدها، وهذا الربط يدرك بسهولة معظم الأحوال وقد يكون الربط خفيا يحتاج إلى قدح زناد الفكر والتدبر لإدراك الترابط الخفي والعلاقة اللطيفة الكامنة بين ما قبل الواو وبعدها.

ثالثاً: قد ألقى ضوءاً كاشفاً على أسرار ترك العطف بين أسماء الله سبحانه وتعالىٰ حيناً والعطف حيناً آخر و بيّن الأسباب بالتفصيل وأثبت أن إتيان الواؤ وحذفيها يتعلق بقصدالمتكلم ومرادة ، وأن للواو سياقات ، وكل سياق له دلالة وحذفيها له مع كل جملة مغزى.

رابعاً: حاول البحث أن يجيب السؤال الذي يطرح نفسه إذا كانت الواو تأتي لمطلق الجمع لماذا يقدم المعطوف عليه على المعطوف ؟ وهل هناك وجوه معينة لتقديم المعطوف عليه على المعطوف؟ أم لا؟ وقدّم الباحث وجوه التقديم من مراعاة السبق زمانياز أو واقعيا ومراعاة الشرف والسياق والغلبة والكثرة ولكون الواو سبباً وداعيا والترقي وغيرها

خامساً: حاول البحث أن يقدم بعض نماذج في أسرار التقديم والتأخير لتكون دليلا للباحثين والمتذوقين ولم نستقصِ جميع الأمثلة والأسرار في هذا الجانب. وقد بذل أسلافنا قصاري جهودم في إبراز أسرار النظم القرآني عامة، وأسرار التقديم والتأخير خاصة مثل العلامة شمس الدين بن الصائغ الحنفي (123) في كتابه " المقدمة في سر الألفاظ المتقدمة"(124) والزركشي في "البرهان في علوم القرآن" (125) والسيوطي (126) .

سادساً: أن الآيات التي تعرضنا لها في هذا البحث قد يضم كل منها أكثر من سبب التقدم المعطوف عليه على المعطوف، ولذا الأحسن أن تراعى أقواها في صورة التعارض والخيار في صورة التساوي. وقد يخرج الأسلوب القرآني عن الأصل المروج لمراعاة سياق الكلام، ولا بد من بحث عن سرّ خروجه عن الأصل من دلالة السياق التي وردت فيه الآية المشتملة على العطف بالواو.

الهوامش

(1) راجع: تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، جـ: ١، ص: ٣٧٩، ضمن شروح التلخيص.

(2) ينظر: مختصر المعاني للتفتازاني جـ: ١، ص: ٣٧٩، ضمن شروع التلخيص.

(3) يراجع: مواهب الفتاح للمغربي جـ: ١، ص: ٣٧٩، ضمن شروع التلخيص.

(4) يراجع المرجع نفسه

(5) ينظر: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لجمال الدين بن هاشم الأنصاري جـ: ١، ص: ٣٩٠

(6) ينظر العيسوي، عبد الحميد، الأستاذ الدكتور موقع كل من المتعاطفين بالواؤ في ضوء نظم القران، مقال نشر في (مجلة كلية اللغة العربية، العدد ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م. مطبعة الأمانة، القاهرة).

(7) سيبويه، الكتاب، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون (عالم الكتب، الشركة اللبنانية للطباعة، بيروت، لبنان، ط:٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م) جـ: ١، ص: ٤٣٨

(8) ينظر: المقتضب جـ: ١، ص: ١٤٨، والأصول لابن سراج جـ: ٢، ص: ٥٥.٥٦

(9) الحديد: 26

(10) العنكبوت: 14

(11) الشورى: 3

(12) هو محمد بن إدريس العباسي أجد الأئمة المشهور. التفصيل يراجع أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق (ت: ٤٣٨هـ)، الفهرست، تحقيق: رضا تجدّد (دار السيرة، بيروت، ط: 3، 1988م) ص: ٢٦٣ ومعجم الأدباء جـ: 2، ص: 367

(13) هو أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد النحوي المعروف بقطرب، أخذ الأدب عن إمام النحاة سيبويه، وله تصانيف عديدة منها "معاني القرآن"، وكتاب "الاشتقاق" وكتاب "القوافي"، وكتاب "النوادر" وغيره ينظر التفصيل في إنباه الرواة جـ: 3، ص: 219، ووفيات الأعيان جـ: 4، ص: 312

(14) هو الضرير النحوي الكوفي. يراجع معجم الأدباء جـ: ٧، ص: 254، وإنباه الرواة جـ: 3، ص: 364

(15) هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار المعروف بثعلب، له مؤلفات عديدة منها كتاب "الفصيح" وكتاب "المصون" و "اختلاف النحويين" وغيره يراجع وفيات الأعيان جـ: 1، ص: 102، وتاريخ بغداد، جـ: 5، ص: 204

(16) كان لغوياً ومحدثا، لازم ثعلب في أخذ العربية وألّف "فائت الفصيح" و "الموضح" و "فائت الجمهرة". يراجع طبقات الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثماني الذهبي (ت: 748هـ) سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط: 6، التاريخ (بدون)جـ:15،ص:57

(17) هو أبو الحسن علي بن عيسى الربعي النحوي، البغدادي، كان إماماً في النحو وقد ألف مؤلفات قيمة منها "كتاب الإيضاح" لأبي علي الفارسي وشرح مختصر الجرمي. يراجع التفصيل في إنباه الرواة جـ:2،ص:298.

(18) ينظر المرادى حسن بن قاسم الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: طه محسن (مؤسسة دارالكتب ، جامعة موصل 1396هـ/1976م)، ص : 188.

(19) هو أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو جعفر الكاتب (ت:322هـ) يراجع تاريخ بغداد جـ:4، ص:229.

(20) يراجع الفرّاء ، معاني القرآن، جـ: 1،ص 396:(فأما الواؤ إن شئت جعلت الآخر هو الأول والأول هو الآخر، فإذا قلت: زرت عبد الله وزيداً فأيهما شئت هو المبتدأ بالزيارة

(21) هو أحمد بن الحسين بن معالي الإربلي الموصلي النحوي الضريرى (ت: 637هـ) ومن مصنفاته النهاية في النحو ، وشرح الجزولية ، وشرح ألفية بن معط يراجع:

(ا) يوسف بن تغري بردي، النجوم الظاهرة (دارالكتب المصرية، التاريخ(بدون) جـ:6، ص:344

(ب) والسيوطي، عبد الرحمن بن أبوبكر، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، (دارالفكر، بيروت، ط:1979م) جـ:1،ص:304

(ج) والحنبلي، عبد الحي بن العماد (ت: 1089هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (دارالكتب العلمية، بيروت، التاريخ (بدون) جـ:2،ص:9

(هـ) الفهرست ص:29

(22) تسهيل الفوائد، تحقيق: محمد كامل بركات (القاهرة، المطبع والتاريخ بدون) ص:174

(23) آل عمران: 43

(24) الجاثية:24

(25) البقرة: 58

(26) مغني اللبيب: جـ:2، ص: 32

(27) الأعراف:161

(28) شرح الكافية، جـ:2، ص: 32

(29) راجع هذة الأدلة في شرح المفصل لا بن يعيش جـ:8، ص: 91-93

(30) البيت لابن ميادة الرماح بن أبير د. ينظر:

(أ) شعر بن ميادة ، جمعه و حققه حنا جميل حداد، راجعه وأشرف على طباعته قدري الحكيم (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط:1،1982م) ص: 214

(ب) مغنى اللبيب جـ:1، ص:392

(ج) المالقي، الإمام أحمد بن عبد النور (ت:702هـ) رصف المباني في شرح حروف المعاني تحقيق: أحمد بن الخراط (مجمع اللغة العربية بدمشقط:1،1975م) ص:412

(31) ينظر: (أ) شرح الكافية جـ:2، ص:362

(ب) التسهيل:ص:175

(ج) مغني اللبيب جـ:2،ص:32

(د) المفصل جـ:8، ص: 93

(32) ينظر: (أ) الجنى الداني في حروف المعاني ص: 177

(ب) مغنى اللبيب ص: 396

(33) راجع: أحمد سعد محمد ، الدكتور ، التوجيه البلاغي، ص: 358

(34) فمثله قوله تعالى:﴿وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيْلَ وَمِيْكَائِيْلَ﴾ البقره: 98. والسر البلاغي هنا الدلالة على فضلها وبلوغها في رفعة الشأن إلى حيث صدر كأنهما من جنس آخر غير جنس الملائكة؛ فإن التغاير في الوصف قد ينزل منزله التغاير في الذات، وللتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر، ومؤداه فإنه لو اكتفي بذكر الملائكة لربمايتوهم أن عداوة جميع الملائكة سبب الكفر لا عداوة الواحد منهم، فلما أفرد بالذكر اندفع الوهم وعلم أن من عادى أحدهم فكأنما عادى الجميع في أنه كافر وهذه الفائدة مبينة على لفظة الواؤ العاطفة في الآية مستعملة مكان أو التسوية كما هو الشائع في اللغة .

يراجع: (أ) حاشية محي الدين المشهور بشيخ زاده على البيضاي جـ:1،ص:363

(ب) حسن محمد باجودة، الأستاذ الدكتور ، وتأملات في سورة البقرة (دار مصر للطباعة 1410هـ 1989م) جـ:1،ص:562

(ج) البحر المحيط جـ:1، ص:490

وقوله ﴿رَبِّ اغْفِرْلِيْ وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ نوح: 28

(35) نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا أَشْكُوبَثِّي وَحُزْنِي إِلَىٰ اللَّهِ﴾ يوسف 86 ﴿صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ البقرة: 157

(36) كقوله الفرزوق: إنّ الر زية لا رزيّة مِثْلُها فُقْدَانُ مثل محمدٍ ومحمدِ

ينظر ديوان الفرزدق (دار صادر، بيروت، التاريخ بدون) جـ:1،ص:71

وقول أبي نواس: أممنا بها يوما ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الرجل خامس

ينظر شرح ديوان أبي لإيليا حاوي (الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط:1987م) جـ:2،ص:7

(37) نحو قوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان: 3، كقوله (..... ولكن رسول الله) الأحزاب: 40

(48) يراجع التفصيل عند السيوطي، همع الهوامع جـ: 3، ص:157 ـ 159 وشرح الأشموني جـ:2، ص:363، والجنى الداني جـ:1، ص:19 وبدائع الفوائد جـ:1،ص:190

(39) الحشر: 22 ـ 23

(40) العلوى، كتاب الطراز، ص: 221

(41) الحديد: 3

(42) الأعلى: 4

(43) الزخرف: 10

(44) يراجع ابن قيم الجوزية، العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر (756هـ) بدائع الفوائد، جـ: 1، ص: 190، والكشاف جـ:4، ص:149

(45) الانفال: 49

(46) البقرة: 53

(47) يراجع الكشاف جـ:1، ص:281، محمد أبو موسى، الدكتور، أسرار التعبير القرآني، ص :58

(48) يراجع بدائع الفوائد جـ:1،ص:191، الكشاف جـ:4، ص:63، البحر المحيط جـ:8، ص: 218

(49) الأحزاب: 45

(50) راجع: الكشاف ج:3،ص:570 وتفسير أبي السعود ج: 7،ص:104

(51) التحريم: 5

(52) التوبة: 112

(53) كتاب الطراز ص: 220

(54) آل عمران: 16 ـ 17

(55) كتاب الطراز ص: 220

(56) غافر: 3

(57) يراجع بدائع الفوائد جـ:1، ص:192

(58) البيت في ديوانه، ص: 190

(59) آل عمران: 17

(60) التوبة: 112

(61) يراجع: دلائل الإعجاز، ص: 222

(62) يراجع الكتاب جـ1،ص:24 والبرهان جـ:3، ص:276

(63) البقرة: 255

(64) البرهان: جـ2،ص: 218

(65) البقرة: 257

(66) البقرة: 125، وكذلك الآيات 127، 133، من السورة نفسها

(67) النجم: 36 ـ 37

(68) راجع التفسير الكبير للرازي جـ: 29، ص:13 وتفسير البيضاوى و حاشية الشهاب عليه جـ:8، ص: 116

(69) البقرة: 164، 8181، 274

(70) البرهان للزركشي جـ:3، ص:241

(71) فمثلاً ينظر الآية 40، من سورة يس ، وآية رقم 6، من سورة الحديد

(72) البقرة: 25

(73) يراجع: البيضاوي وحاشية شيخ زاده عليه جـ:1،ص: 207

(74) الحج: 77

(75) البقره: 158، وكذلك 125 من السورة نفسها

(76) ينظر التفصيل في الكشاف جـ:1،ص:491،والتفسير الكبير للرازي جـ:8، ص: 44

(77) البقرة: 285 وينظر كذلك من السورة نفسها 62، 177

(78) راجع البرهان للزركشي جـ:3، ص: 246

(79) البقرة: 178

(80) الأعراف:87

(81) البقرة: 253، وكذا آل عمران: 20، 141، النساء: 55، 76، الجن: 14

(82) يونس: 31، وهود: 30، فصلت: 22، 30

(83) راجع التحرير والتنوير جـ:1، ص:254

(84) يونس: 42

(85) البقرة: 7

(86) راجع: البرهان: جـ:2، ص: 254

(87) الجاثية: 23

(88) راجع مقال الأستاذ الدكتور عبد الحميد العيسوي بعنوان، موقع كل من المتعاطفين في ضوء نظم القرآن نشر في مجلة كلية اللغة العربية 1989م

(89) البقرة: 106، 117، 164، 255، و 274

(90) يونس: 61

(91) سبأ: 3

(92) راجع الكشاف جـ:2، ص:243، والبرهان جـ:3، ص:257

(93) ينظر الآيات: البقرة: 115، 142، 177، 257، الشعراء 28، المزل: 9

(94) النساء: 69، وينظر كذلك التوبة: 100،117 والفتح؛ 29، الأحزاب: 56، المائدة: 6، الإسراء: 88، وغيرها من الآيات

(95) البقرة: 4

(96) راجع التحرير والتنوير جـ:1،ص: 235

(97) لم أعثر على قائله

(98) راجع الكشاف جـ: 1، ص:134، وتفسير أبي السعود جـ:1، ص: 46

(99) سورة البقرة: 284

(100) يراجع تفسير أبي السعود جـ:2، ص:84

(101) ينظر آل عمران: 129، المائدة: 18، الفتح: 14

(102) الفتح: 14

(103) البقاعي برهان الدين أبي الحسن إبراهيم عمر (ت: 885 هـ) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (دارالكتب الإسلامي بالقاهرة، ط:2،1413هـ-1992م) جـ:2، ص: 455

(104) النحل:6 وينظر الأنبياء:91 والمؤمنون: 50

(105) ينظر: الكشاف جـ:2، ص: 401 والتحرير والتنوير جـ:13، ص:84

(106) الأنبياء: 79

(107) الحديد:3، وينظر كذلك المدثر: 37، والانفطار:5، القيامة:13، الواقعة:39، الروم: 4

(108) فمثلاً ينظر النازعات: 25 والنجم: 24 وقد أجاب الزمخشري والرازي تحت هاتين الآتين راجع الكشاف جـ:4، ص: 214، 4، وكذلك التفسير الكبير الرازي جـ:31، ص: 43

(109) سورة البقرة: 222

(110) البرهان جـ:3 ، ص: 289

(111) البقرة: 5

(112) حاشية الشهاب جـ:1، ص: 25

(113) النور: 30، وينظر كذلك سورة الفرقان: 48

(114) رواه أحمد جـ:2،ص: 343

(115) الكشاف جـ:3، ص:61، والاتقان جـ:2، ص: 52

(116) البقرة: 174

(117) الأحزاب: 1

(118) أسرار التعبير القرآني ص: 10

(119) البقرة: 24

(120) البقرة: 128

(121) البقره: 214

(122) البقرة: 4

(123) توفي 577 هـ ، ومن تصانيفه شرح ألفية بن مالك في النحو، تذكرة في النحو ، الرقم في شرح قصيدة البردة. ينظر البغدادي، إسماعيل باشاه ، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، جـ:2، ص: 99

(124) وهذا الكتاب فيما يبدو غير موجود، اذ لا نعثر له على أثره إلا في كتب التراجم وآثار المؤلفين

(125) راجع جـ: 3، ص: 233 ـ 287

(126) ينظر الإتقان في علوم القرآن جـ: 2، 71، 21، 125 .....